الفصل الثاني

في دور المحفوظات

obeikandl.com

obeikandl.com

في دور المحفوظات

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وصلت إلى لندن، بعد قضاء ثلاثة أيام في باريس، وحضرت اجتماعاً لمجلس إدارة شركة سيرليند سي باركنسون، شرحت المنازعات التي طرحت على القضاء المختلط، ومركز الشركة في كل نزاع، وأجبت عن الأسئلة التي وجهها لي أعضاء المجلس. وكانت الحفاوة بشخصي أكثر مما توقعته من قبل، وكانت ترجمة للاعتراف بالجميل، وتقديراً للعمل الذي قمت به. وفي نهاية الجلسة، قال الرئيس: إن الشركة تستضيفني بضعة أسابيع في المملكة المتحدة، وفي أي بلد آخر أختاره في أوروبا؛ فمن حقي أن أقضي عطلة طيبة بعد الجهد الذي بذلته، وإن المجلس يتوجه لي بالرجاء أن أنسى قناطر إسنا، ولا أتحدث عن مشكلاتها بعد هذه الجلسة، وقدم لي قائمة طويلة بزيارات رتبت لي أثناء مقامي في تلك البلاد، وعينت الشركة أحد رجالها لمرافقتي في مختلف الزيارات، وهو المحاسب القانوني "سام شنويل" ابن وزير الوفود في حكومة العمال يومئذ المستر "عمانويل شنويل" ذلك لأن الابن "شنويل" كان قد زار القاهرة وإسنا لمراجعة حسابات العمال التي نفذت، ويعرفني معرفة طيبة.

ويتابع الدكتور مصطفى الحفناوي: كانت مدينة لندن يومئذ خرائب وأنقاضاً من فرط ما أصابها من دمار أحدثته القنابل والطائرات والغارات الألمانية، وكانت تعاني شظف العيش والحرمان من الضروريات، حتى إنه قيل لي إن الأطفال الإنجليز الذين ولدوا بعد سنة 1939م، لا يعرفون اسم الموز إذا رأوه لأنه لم يدخل إنجلترا منذ قيام الحرب في سبتمبر سنة 1939م، وهذا هو الحال بالنسبة لأشياء كثيرة. وقال لي عضو بمجلس العموم إنه يتمنى أن يحصل

على قليل من الأرز الذي لم يره قط منذ ذلك التاريخ، وكانت الحوانيت خالية من السلع، وغير ذلك من صور الحرمان والفاقة التي ضاعفت إعجابي بهذا الشعب وبصبره عند الشدائد، وكنت أسألهم: كم من السنوات تطيقون هذه الحالة؟ فيجيبني البعض بقوله: لتكن مائة عام، حسبنا أننا أنقذنا بريطانيا، ولم يدنس أرضها احتلال أجنبي.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: شاهدت الخرائب الشاسعة في مختلف الأحياء، والمساحات التي أحيطت بالأسلاك الشائكة، وقد تركوا جثث الضحايا تحت أنقاض عشرات من العمارات الضخمة التي دفنوا تحت أنقاضها، ورأيت أسراً تعيش في بيوت مؤقتة صنعت من ألواح الصاج، ووضعت في الخرائب وبين الأنقاض، ورأيت الإنجليزي المعروف بالصلف والأنفة في حي بيكاديلي وشارع ريجنت، يسير من ورائي على استحياء وأنا أشعل لفافة من التبغ ليلتقط عقب السيجارة حينما ألقي به. والتفتّ ذات يوم إلى واحد من هؤلاء، وقدمت له علبة سجاير من صنف وأخرى من صنف آخر؛ ليختار ما يطيب له تدخينه. وكنت قد أحضرت معي من مصر صناديق مليئة بالسجائر والصابون والسكر وغير ذلك من السلع التي اختفت من لندن وفقًا للمعلومات التي زودت بها قبل سفري. وكانت إنجلترا تصنع السجاير وتصدرها للخارج، تصدر إنتاجها بالكامل لتحصل على عملات تسدد بها ديونها الفادحة، المترتبة على نفقات الحرب. وقلت للرجل الإنجليزي الذي أردت مجاملته بلفافة من التبغ، أتدري سبب الحرب، والفاقة التي تعانونها؟ إن السبب هو الاستعمار، وعليكم تصفيته فوراً، افرضوا على حكومتكم الجلاء من كل أرض

تحتلها جيوشكم خارج إنجلترا، لتعود إليكم الرفاهية وتعيشوا بشرف وكرامة، وغضب الرجل الإنجليزي من هذا النصح، ورفض السجاير التي قدمتها له، وقال لي في غلظة وقحة: "عد إلى بلادك، واتركنا وشأننا".

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وزرت عدا الخرائب معالم لندن المعروفة؛ البرج العتيق، ومتحف الشمع: وغيرهما، كما زرت جامعة أكسفورد، وفي الطريق إليها توقفت عند بيت الشاعر الخالد وليم شكسبير، ولم يفتني أن أحضر بعض جلسات المحكمة العليا، ومحاكم البوليس العادية، وإني أشهد أن أحجار البناء في المحاكم البريطانية تكاد تنطق، وتردد هذه العبارة "العدل أساس الملك".

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وسألني مرافقي "سام شنويل" عما إذا كنت أرغب في زيارة أماكن أخرى لم ترد في البرنامج المكتوب؟ فأجبته أني أريد زيارة مكتبات لأشتري كتبًا. فقال لي إن والده مؤلف، ويستطيع معاونتي إذا عينت نوع الكتب التي أريدها ومادتها. فقلت له: "أريد كتبًا حول موضوع قناة السويس"، كتبًا تبحث مسائل قناة السويس، وسرعان ما أحضر لي كتابًا عن قناة السويس، ماضيها وحاضرها ومستقبلها لمؤلف إنجليزي يقال له "هارولد ويلسون"، ولكنه همس في أذني قائلاً إنه يعرف داراً للمحفوظات التاريخية تابعة لوزارة الخارجية البريطانية، بها ملفات غنية بالوثائق التاريخية عن قناة السويس، ولا تقع هذه الملفات تحت حصر، وأضاف إن العلماء والباحثين يترددون على قاعات المطالعة في تلك الدار، ونصحني بزيارتها، فقبلت النصح على الفور. وفي تلك الدار مددت يدي إلى ملف ضخم، ورحت أقلب فيه كنموذج، ودون أن أقصد البحث عن ورقة أو وثيقة بذاتها، فإذا بي أجد صورة باللغة الفرنسية لوثيقة مؤرخة في سنة 1249 ميلادية،

وهي صورة كتاب رفعه قسيس من رجال الحروب الصليبية إلى ملك فرنسا، يدعوه فيه إلى احتلال مصر بمعرفة دولة مسيحية، تتكتل وراءها أوروبا المسيحية؛ لتقوم الدولة المحتلة بشق قناة في برزخ السويس، يجعلونها ملكًا مشتركًا للعالم المسيحي، لتكون القناة أداتهم في تشتت شمل المسلمين الكفار، والاستيلاء على بلادهم.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: هذا مضمون الوثيقة الأولى التي وقع نظري عليها مصادفة، وقد اهتز قلبي ودق دقات سريعة حينما قرأتها، وشعرت أن المشاجرة التي حدثت على ظهر السفينة، كانت بترتيب إلهي، وأنه سبحانه وتعالى قد رتب الأمور منذ أن وكلت عن شركة "سيرلينـد سي باركنسون"، وسارت الأمور في طريق انتهى بي إلى دار المحفوظات التاريخية بلندن لأقرأ هذه الورقة، وأنظر لقناة السويس من هذه الزاوية، زاوية الحروب الصليبية، وأراها مشروعًا طيبًا، وهذا ما لم يدر بخاطري من قبل، ومعنى ذلك أن ربنا جل وتعالى يأمرني بعمل شيء، فماذا أنا صانع؟!

ويستطرد الدكتور مصطفى الحفناوي: مضيت في الاطلاع، وعدت إلى هذه الدار بضع مرات، وحصلت على إذن بنسخ ما يهمني نسخه من تلك الأوراق، وهي كثيرة جداً، وقد أيدت هذه النظرية الصليبية، واستمر هذا اللون القاتم التعصبي البغيض يدفع مشروع القناة في برزخ السويس في العصور التي تلت تاريخ تلك الوثيقة في عصور ملوك فرنسا العظام: لويس الرابع عشر وخلفائه، وفي أيام الثورة الفرنسية على يد نابليون بونابرت، وحملته على مصر في آخر القرن الثامن عشر. وكنت لا أنام الليل إلا قليلاً من فرط البحث عن جواب لسؤالي، ماذا أصنع وأدلة الاتهام لأوروبا الصليبية المتعصبة في يدي، وقد أيقنت أن مأساة بلاد الاحتلال البريطاني، والسيطرة الاستعمارية في شكل شركة سموها شركة قناة

السويس العالمية . . كل هذا هو استمرار للحروب الصليبية في العصر الذي نعيش فيه، والسؤال الملح علىّ هو: ماذا أصنع؟ ماذا أصنع والأوراق في يدي؟ وهتف هاتف في نفسي هتافًا انطلق من أحشائي، ودوى في سمعي وفي قلبي، بهذه المعاني:

أنت أيها الشاب المصري محام، وهذه قضية الإسلام في قناة السويس، ليس لها محام يترافع فيها، عليك أن تتطوع وأن تعتبر نفسك محاميًا في هذه القضية، والله الذي هيأ لك الأسباب هو الموكل وهو الذي يعينك ويرعاك. عليك أيها المحامي أن تبدأ بإعداد ملف القضية، وجمع أوراقها المتناثرة من مختلف دور المحفوظات في أرجاء المعمورة، ومن أي بلد وجدت فيه، وعليك ألا تترك كتابًا بالإنجليزية والفرنسية عن قناة السويس، وأن تقرأ المراجع قراءة من يرتاب في المؤلفين ويبحث عن الحقيقة بين السطور، وعليك بعد أن يتم إعداد الملف أن تختار المنبر الذي تعرض منه القضية على العالم بأسره لتكشف الحقيقة للناس، وكي توقظ وتنبه أصحاب الحق، وتنادي بتحرير القناة، واستخلاصها من القبضة الاستعمارية، وتضع إستراتيجية لذلك.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: هذا ما استقر عليه العزم، بعد طول تأمل، وقد صليت لربي وأقسمت على كتابه الكريم أن آخذ نفسي بهذا الواجب، وأن أمضي فيه حتى الموت، مهما كلفني.

ثم عدت من رحلتي الطويلة في لندن وباريس وجنيف، وأنا أشعر أني لم أعد أعيش لنفسي ولأولادي، وإنما أعيش من أجل هذا الواجب المقدس الذي أقسمت على أن أحمل أمانته، وأن أسخر في سبيله جميع طاقاتي وإمكاناتي.

*****

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: عدتُ إلى مصر في شهر

سبتمبر سنة 1946م، واستأنفت أعمال مكتبي بأضعاف الجهد الذي كنت أبذله من قبل؛ لأني كنت بحاجة إلى المال من أجل المشروع الذي حملت أمانته، ولا أستطيع أن أعتمد على موارد غير إيراد مكتبي، سواء من أعمال قناطر إسنا، أو من أتعاب قضايا الأفراد التي كنت أوكل فيها، وقد نجحت في جميع أعمالي وتضاعف دخلي، وكأن السماء كانت تمطرني ذهبًا وفضة. وكنت قد بدأت قبل رحلتي في سنة 1946م، بناء فيلا فاخرة بشارع أستوديو الأهرام الآخذ من شارع أهرام الجيزة، وعهدت إلى إحدى الشركات موكلتي وهي شركة كوكينوس للمقاولات بالإسكندرية بمقاولة الفيلا، وتمت على خير مثال، وسكنتها مع زوجتي وأولادي منذ أوائل سنة 1947م، وارتفعت تكاليف معيشتي أنا وزوجتي وولدي البكر وابنتي نجاة، وكان إيرادي الشهري يفيض ويزيد على نفقات معيشتنا على أحسن المستويات.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وقررت يومئذ اختيار المنبر العالمي الذي أعرض منه قضية قناة السويس وأن يكون منبرًا جامعيًّا، وذلك بأن أتخصص في إحدى جامعات إنجلترا أو فرنسا في القانون الدولي العام، وأن تكون قناة السويس هي موضوع رسالة دكتوراه، تكون هي القضية التي أعرضها على الضمير الإنساني. وبادرت بتقديم طلب التحاق بجامعة "أكسفورد" بإنجلترا، فأجابت الجامعة أنها تعتذر عن قبول طلبي، وأنها وضعت اسمي بقائمة الانتظار لأن الأماكن الخالية بالجامعة محجوزة للطلبة العائدين من ميدان القتال. ولم أضيع وقتًا، فاتجهت إلى جامعة باريس، والتحقت بقسم الدكتوراه بكلية الحقوق بتلك الجامعة. وتتابعت أسفاري القصيرة من أجل الوثائق والمراجع، وعدت إلى لندن في صيف سنة 1947م سيما وأن أعمال الشركة في القناطر قد شارفت على الانتهاء، وحققت الشركة نجاحًا ماديًّا وأدبيًّا غير مسبوق في تلك الأعمال الكبرى، ومن

لندن توجهت إلى باريس وقضيت فيها بعض الوقت، وبمعاونة أصدقاء دخلت دار المحفوظات التاريخية التابعة لوزارة خارجية فرنسا، ونسخت وثائق هامة من سجلات المكاتبات الدبلوماسية في عصور مختلفة، كالمكاتبات مع الباب العالي، والفرمانات العثمانية، وما إلى ذلك، وكنت في هذه الدار وفي السجلات الرسمية أقرأ تاريخ بلادي قراءة صحيحة، وعنيت في المحفوظات الفرنسية ـ بصفة خاصة ـ بحملة بونابرت على مصر، وتقارير المهندس "ليبير" والعلماء الذين رافقوا بونابرت، وسماهم التاريخ البعثة العلمية، ولم تكن هناك بعثة علماء، وإنما كانوا مهندسين وغيرهم، سافروا لغرض واحد هو تصميم وتخطيط مشروع القناة التي كانت حلم الصليبيين، ولم يكن للحملة الفرنسية غرض آخر سوى السيطرة على طريق الهند، وانتزاعه لفرنسا من يد إنجلترا بتنفيذ مشروع القناة الصليبي. ومن أجل هذا المشروع بالذات عين بونابرت "ماتيو دي ليسيبس" والد فرديناند بعد جلاء الفرنسيين عن مصر؛ ليمهد لعودة احتلال فرنسا لمصر، عينه في وظيفة قنصل عام، ولعب الدبلوماسي الفرنسي دوراً خطيراً في التاريخ المصري، إذ احتضن الجندي الألباني محمد علي، وحمل فرنسا على بذل الأموال الطائلة في القسطنطينية لتعيين محمد علي والياً على مصر، وكان حكم محمد علي نهضة سياسية وعسكرية وعمرانية، ولكنه كان وصاية فرنسية مقنعة، كما استخلصتُ من أوراق المحفوظات الرسمية، واتفقت فرنسا مع محمد علي مسبقًا على إزاحة الزعامة الدينية من الميدان السياسي، ولذلك نكل بالسيد عمر مكرم وبسائر العلماء، كما اتفقت معه مسبقًا على شق القناة في برزخ السويس، وأوفدت بعثة مسيحية لهذا الغرض بقيادة القس "أنفانتان" سميت بجماعة "سان سيمونيان" من أجل مشروع القناة، ووقع المهندسون الفرنسيون في خطأ هندسي؛ إذ خيل إليهم اختلاف مستوى البحرين الأبيض والأحمر، وأن تغرق الدلتا لو

أنهم حفروا القناة برزخ السويس، ولهذا فقط لم ينفذ المشروع في أيام محمد علي.

*****

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وفي مستهل سنة 1948م، انتهت الأعمال في قناطر إسنا، ووجهت الحكومة المصرية دعوة إلى الشركة بلندن لندب اثنين من رجالها يكونان ضيوفًا على المائدة الملكية في حفل افتتاح القناة الذي تقرر أن يكون في أسوان في مناسبة افتتاح ابتداء أعمال كهربة خزان أسوان، وأجابت الشركة بأن أكبر الفضل في نجاح أعمالها وتمامها في الوقت المحدد لها يرجع إلى جهود المحامي المصري الشاب، مستشار الشركة القانوني، وأنه ـ عدالة وشرعًا ـ يجب أن يوجه له الدعوة لينوب عنها في هذه المناسبة التاريخية، ويظفر بشرف الضيافة على المائدة الملكية، وأجيبت الشركة إلي طلبها، وكانت هذه المرة الوحيدة التي صافحت فيها الملك فاروق، وتحدثت إليه نائبًا عن سير ليندس باركنسون، ولكني لقيت آخرين من الرسميين كانوا يعرفونني وكنت أعرفهم. . لقيت رئيس الوزراء المرحوم محمود فهمي النقراشي، كما لقيت رئيس الديوان الأستاذ إبراهيم عبد الهادي، وجلست من ناحية البروتوكول مع الوزراء، وكنت وقتئذ في السادسة والثلاثين من عمري، وتذكرت وأنا ألبس الريدنجوت وقتئذ وأعامل بمهابة، أني بدأت السلام فلاحًا صغيراً يعمل بيديه، ولا حول له ولا قوة إلا بالله.

ويتابع الدكتور مصطفى الحفناوي: وعنيت بأعمال شركة سير لندس باركنسون إلى أن صفيت معاملاتها في مصر، وقد أفادتني بسخاء، وكانت الأتعاب الكبيرة التي حصلت عليها هي العون الأكبر لي في مواصلة أسفاري والبحث عن أوراق القناة ووثائقها التي أخفاها الاستعمار في دور محفوظاته الرسمية. وقبل أن يجف موردي

من أعمال قناطر إسنا، فوجئت في شهر مايو سنة 1948م ببرقية وصلتني من أمستردام بتوقيع صديق هو الآن من أوثق الأصدقاء بشخصي، وهو الرجل الهولندي العظيم "دراب" الذي كان رئيسًا للشركة الملكية الهولندية لأعمال الموانئ.

وهذه الشركة كانت مشتركة بنسبة الصنف مع شركة "باتينيول للإنشاء" الفرنسية في مقاولة إنشاء قناطر "أدفينا" التي تجاوزت قيمتها ثلاثة ملايين ونصف المليون من الجنيهات. أبرق لي "دراب" من أمستردام مخاطبًا أياى بأن عقد قناطر أدفينا قد أسند إلى شركته مع الشركة الفرنسية في 5 من مايو سنة 1948م، وأنه يدعوني لمقابلته بفندق شبرد في موعد حدده باليوم والساعة. وقابلته، وعلمت منه أنه وشركاءه الفرنسيين يطلبون التعاقد معي لأكون المستشار القانوني لأعمال قناطر أدفينا. وقبل التعاقد طلبت الاطلاع على عقد المقاولة لدراسته وبعد دراسة عميقة نصحته وشركاءه بعدم تنفيذ العملية حتى وإن صادرت الحكومة المصرية الضمان المصرفي ومقداره مائتي ألف من الجنيهات. وأكدت أن هذا أهون من خسارة محققة لن تقل بحال عن مليون من الجنيهات. وبنيت من نصوص العقد أسباب الخسائر فيما رأيت. فطلب مني السفر فوراً إلى باريس لحضور اجتماع مشترك من مجلس إدارة كل من الشركتين. وكانت الحرب في فلسطين قد اشتعلت نيرانها في 15 مايو سنة 1948م، وسافرت بعد هذا التاريخ بأسبوع واحد إلى باريس، وبعد أن أوضحت تحفظاتي أصرت الشركتان على تنفيذ العملية على مسئوليتهما، وقبلت مهمتي كمستشار قانوني بعد أن أبرأت ذمتي بشرح الحقيقة كما رأيتها. وبقيت في أوروبا حتى آخر أغسطس سنة 1948م، لمواصلة البحث عن مراجع ووثائق لقناة السويس، وفي هذه الرحلة علمت أنه يوجد في فيينا ما يسمى بمحفوظات الدولة، وفيها الكثير من وثائق قناة السويس، وعلمت أيضًا متحف الفاتيكان به قسم للوثائق

التاريخية فيه الكثير عن قناة السويس، وفي السنة التالية في سنة 1949م حصلت على ما أمكن الحصول عليه من تلك الوثائق الهامة، سواء من فيينا أو من روما، وفي الوقت نفسه كانت دراستي في قسم الدكتوراه بكلية حقوق باريس تسير على خير مثال، وأحسست أثناء البحث أني لا أستطيع الاستغناء عن دراسة محفوظات شركة قناة السويس في باريس.

وبذلك محاولات فاشلة لهذا الغرض، وتريثت ريثما تحين الفرصة الملائمة لاقتحام مكاتب الشركة التي لم تسمح من قبل لأي باحث بالاطلاع على ملفاتها ووثائقها. وجاءت الفرصة المناسبة في فجر سنة 1950م، وكانت هذه بداية نهاية تلك الشركة العاتية.

*****